

المعطف

تأليف: نيقولاى غوغول

ترجمة: أبو بكر يوسف

في إحدى الإدارات كان يعمل أحد الموظفين.. موظف لانستطيع أن نقول عنه أنه كان بارزاً جداً، بل كان قصير القامة، مجدوراً إلى حد ما وأحمر الشعر إلى حد ما، بل ويبدو أعمش إلى حد ما، بصلعة صغيرة فوق الجبين وتجاعيد على كلا الخدين، أما لون وجهه فكان كما يقال بواسيريا.. وما العمل؟! الذنب في ذلك ذنب جو بطرسبورغ. أما فيما يتعلق برتبته (لأنه من الضروري عندنا أن نعلن عن التربة قبل كل شيء) فقد كان ممن يسمون بـ «المستشارين الاعتباريين» (1) الخالدين الذين سخر منهم وهزئ بهم ما وسعهم، كما هو معروف، شتى الكتاب من ذوي العادة المحمودة في التهجم على أولئك الذين لا يحسنون العض. وكان اسم عائلة الموظف بشماتشكين. وكان اسم الموظف أكافي أكافيشتش. أما متى وفي أي وقت التحق بالإدارة ومن الذي ألحقه بها، فهذا ما لم يستطع أحد أن يتذكره. فمهما تغير المدراء والرؤساء فقد كان الجميع يرونه دائماً في نفس المكان وفي نفس الوضع وفي نفس الوظيفة، أي موظف كتابة، حتى أنهم آمنوا فيما بعد بأنه، على ما يبدو، قد ولد هكذا جاهزاً، في حلته الرسمية وبصلعة في رأسه. ولم يكن يحظى في الإدارة بأي احترام. فالحراس لم يكونوا ينهضون عند رؤيته، ليس هذا فحسب، بل حتى لم يكونوا ينظرون إليه، كما لو كانت مجرد ذبابة هي التي طارت عبر صالة الاستقبال. أما الرؤساء فكانوا يعاملونه بطريقة باردة مستبدة. فأني مساعد من مساعدي رئيس القلم كان يدس الأوراق تحت أنفه مباشرة حتى دون أن يقول له: «انسخها» أو «هاك عملاً طريفاً طيباً» أو أية كلمات طيبة كما جرت العادة في المكاتب المهذبة. أما هو فكان يتناول الأوراق متطلعاً إليها وحدها دون أن ينظر إلى من قدمها له وهل يملك الحق في ذلك أم لا. كان يتناولها ويشرع على الفور في نسخها. وكان الموظفون الشبان يسخرون منه وينكتون عليه بقدر ما كانت تسمح به روح النكتة المكتبية، ويروون أمامه شتى الحكايات التي ألفوها عنه، ويقولون عن مدبرة بيته، وهي عجوز في السبعين من عمرها، أنها تضربه ويسألونه متى سيحتفلون بزواجهما، وبهيلون الأوراق على رأسه قائلين إنه الثلج يسقط. ولكن أكافي أكافيشتش لم يكن يرد على ذلك بكلمة واحدة، كأنما يكف يقف أمامه أحد. بل أن ذلك حتى لم يؤثر على عمله، إذ لم يكن يرتكب خطأ واحداً في الكتابة وسط كل هذه

السخریات. وفقط عندما تكون النکة غير محتملة، وعندما كانوا يدفعونه في ذراعه، فيعوقونه عن العمل، كان يقول: «دعوني في حالي، لماذا تهينوني؟» كان يبدو ثمة شيء غريب في كلماته وفي الصوت الذي قيلت به. كان فهيا شيء يستدر الشفقة، حتى أن موظفاً شاباً التحق بالوظيفة حديثاً وكان قد سمح لنفسه بالسخرية منه كما يفعل الآخرون، توقف فجأة كالمصعوق، ومن يومها بدا وكأن كل شيء قد تغير أمام عينيه وتبدي في صورة أخرى. ودفعته قوة غير طبيعية مجهولة بعيداً عن زملائه الذين صاحبهم باعتبارهم أشخاصاً محترمين مهذبين. وظل هذا الموظف بعد ذلك ولفترة طويلة وفي أوج لحظات المرح يتذكر الموظف القصير ذات الصلعة فوق الجبين بكلماته النافذة «دعوني في حالي، لماذا تهينوني».. وترن في هذه الكلمات النافذة كلمات أخرى: «أنا مثل أخيك». فكان الشاب المسكين يغطي وجهه بيديه ويرتجف مرات ومرات عديدة بعد طوال عمره وهو يرى ما في الإنسان من لاإنسانية وإلى أي مدى تختفي الفظاظلة الوحشية في التهذيب الراقى المرفه ويا إلهي حتى في ذلك الإنسان الذي يعتبره المجتمع نبلاً وشريفاً.

ومن النادر أن تجد شخصاً يتفانى في عمله إلى هذا الحد. فلا يكفي أن نقول أنه كان يعمل بغيره، كلا، لقد كان يعمل بعشق. كان يرى في ذلك النسخ عالماً خاصاً به، عالماً متنوعاً ولطيفاً. وكانت المتعة تتجلى في وجهه. وكانت بعض الحروف أثيرة لديه، وعندما يبلغها لايعود يسيطر على نفسه... كان يضحك ويغمز بعينه ويساعد بشفتيه على كتابتها، حتى أنه كان يبدو أنه بالإمكان أن تقرأ على وجهه الحرف الذي كان قلمه بخطه. ولو أنهم كافأوه بقدر حميته فرما أصبح، ولدهشته هو، من مستشاري الدولة (1). ولكنه، وكما قال زملاؤه المازحون، نال من الخدمة فتلة في عروة وفاز بمرض البواسير وألم الظهر. وعموماً فلايمكن أن نقول أنه لم يحظ بأدنى اهتمام. فقد أراد أحد المدراء، وكان رجلاً طيباً، أن يكافئه على خدمته الطويلة، فأمر بأن يعهدوا إليه بشيء ما أهم من مجرد النسخ، فكلفوه بأن يعد مذكرة من واقع ملف جاهز بالفعل لإرسالها إلى جهة أخرى. ولم يكن الأمر يتعدى أكثر من تغيير العنوان الرئيسي وتعديل بعض الأفعال من صيغة المتكلم الغائب.

ولكنه كلفه من الجهد ما جعله يعرق تماماً ويحك جبينه، وأخيراً قال: «كلا، من الأفضل أن تعطوني شيئاً ما أنسخه». ومن يومها أبقوه للنسخ إلى الأبد. وكان يبدو أنه لا يوجد بالنسبة له أي شيء خارج هذا النسخ. لم يكن يفكر في ملابسه أبداً: فحلت له لم تكن خضراء اللون، بل ذات لون أحمر طحيني ما. وكانت ياقتها ضيقة، قصيرة، حتى أن عنقه، رغم أنه لم يكن طويلاً، كان يبرز من الياقة ويبدو طويلاً بصورة غير عادية. وكان يعلق بحلته دائماً شيء: إما قطعة قش أو خيط ما. وعلاوة على ذلك كانت لديه مهارة خاصة أثناء سيره في الشارع في أن يتواجد تحت النافذة بالضبط في الوقت الذي يلغون فيها شتى الفضلات، ولذلك كان يحمل على قبعته دائماً قشر البطيخ والشمام وغير ذلك من التفاهات. ولم يحدث مرة واحدة في حياته أن التفت إلى ما يجري ويحدث كل يوم في الشارع ولا حتى إلى ما ينظر دائماً إلى أخوه الموظف الشاب، كما هو معروف، والذي تمتد نظرتة الثاقبة النشطة إلى حد أنه يلاحظ على الرصيف الآخر من تفتت ربطة ساق سرواله، الأمر الذي يجعل الابتسامة الخبيثة تظهر على وجهه.

أما أكافي أكافي فحتى لو نظر إلى شيء فما كان ليرى فيه سوى سطور النظيف المكتوبة بخط منمق، اللهم إلا إذا استقرت على كتفه فجأة سحنة حصان لا يعلم أحد من أين جاءت ونفثت بمنخاريها في خده ريحاً قوية. عندها فقط كان يلاحظ أنه ليس في وسط السطر، بل على الأرجح في وسط الشارع. وعندما يعود إلى المنزل كان يجلس على الفور إلى المائدة، فيلتهم بسرعة حساء الكرنب وقطعة لحم البقر بالبصل دون أن يحس أبداً بطعمها، وكان يأكل ذلك مع الذباب وكل ما كان الله يرسله في تلك الساعة. وعندما كان يلاحظ أن معدته بدأت تنتفخ ينهض من أمام المائدة ويستخرج دواة الحبر ويبدأ ينسخ الأوراق التي جاء بها معه إلى البيت. فإذا لم تكن لديه مثل هذه الأوراق كان يقوم بعمل نسخة لنفسه، فقط من أجل المتعة الشخصية، خاصة إذ كانت الورقة رائعة لا من حيث جمال صياغتها، بل من حيث إنها رسالة إلى شخصية جديدة أو هامة.

وحتى في تلك الساعة التي تنطفئ فيها تماماً سماء بطرسبورغ الرمادية، وبعد أن تكون جماعة الموظفين كلها قد تعشت وشبعت، كل منهم حسب ما يتقاضاه من مرتب وحسب رغباته الخاصة، وبعد أن يكون الجميع قد رتاحوا من صرير أقلام الإدارات والركض بعد أداء الأعمال الخاصة وأعمال الآخرين الضرورية، بعد كل ما يكلف به الإنسان الذي لا يهدأ نفسه عن طوعية، بل وبأكثر مما ينبغي.. وعندما يسرع الموظفون إلى تخصيص ماتبقى من وقت للمتعة: فالأنشطة منهم ينطلق إلى المسرح، ومنهم من يخرج إلى الشارع مخصصاً هذا الوقت للتطلع إلى بعض القبعات، ومنهم من يذهب إلى حفل مالىنفق الوقت في إسداء المديح لفتاة ما مليحة تعد نجمة من نجوم أوساط الموظفين الضيقة، ومنهم من يذهب، وهذا هو الأكثر، إلى أخيه الذي يسكن في الطابق الرابع أو الثالث، في شقة من غرفتين صغيرتين ومدخل، أو مطبخ وبيع ادعاءات الموضة كمصباح مثلاً أو قطعة أثاث كلفت أصحابها تضحيات كثيرة وحرماناً من وجبات الغداء والترهات.. وباختصار فحتى في الوقت الذي يجلس فيه الموظفون في شقق زملائهم الصغيرة ليلعبوا الورق وهم يرشفون الشاي من الأكواب مع قطع الخبز المحمص الرخيص وينفثون الدخان من الغلايين الطويلة ويروون أثناء توزيع الورق شائعة ماوردت من المجتمع الراقي.. وباختصار فحتى عندما يسعى الجميع إلى اللهو فإن أكاكي أكاكيفتش لم يكن يلجأ إلى أي هو. ولايستطيع أحد أن يقول إنه رآه في وقت ما في إحدى الحفلات. فبعد أن يشبع من النسخ يأوي إلى فراشه وهو يتسم سلفاً مفكراً في يوم الغد: فغداً سيرزقه الله بشيء ما لينسخه. هكذا كانت تمضي حياة هذا الرجل الوداعة، هذا الرجل الذي كان راضياً عن حظه بالأربعمائة روبل التي يتقاضاها في السنة، وربما مضت إلى أرذل العمر لولا وجود شتى المصائب المتناثرة على در الحياة ليس فقط أمام المستشارين الاعتباريين، بل والمستشارين السريين الفعليين ومستشاري البلاط (1) وغيرهم من المستشارين وحتى أولئك الذين لا يقدمون استشارات لأي شخص ولا يطلبون المشورة من أحد.

ثمة في بطرسبورغ عدو لدود لكل من يتقاضى أربعمائة وروبل في السنة أو زهاء هذا. وهذا العدو ليس إلا صقيعنا الشمالي، بالرغم من أنه يقال أنه مفيد جداً للصحة. ففي بداية الساعة التاسعة صباحاً، وبالذات عندما تكتظ الشوارع بالذاهبين إلى العمل يبدأ هو في توجيه لذعات حادة قوية إلى جميع الأنوف دونما تمييز، حتى أن الموظفين المساكين لا يعرفون أبداً أين يخفونها. وفي تلك الساعة يشعر حتى أولئك الذين يشغلون مناصب عليا بألم في جباههم من البرد، وتطفر الدموع من عيونهم، أما المستشارون الاعتباريون المساكين فيصبحون أحياناً بلا حماية. والمخرج الوحيد هو أن يركضوا في معطفهم الهزيلة بأسرع ما يستطيعون ليقطعوا خمسة أو ستة شوارع، ثم يدقون بأقدامهم جيداً في المدخل حتى يذوبوا بهذه الطريقة كل ما تجمد في الطريق من قدرات ومواهب على أداء الأعمال الوظيفية. ومنذ فترة قريبة بدأ أكاكي أكاييفتش يحس بوخز شديد خاصة في ظهره وكتفه، على الرغم من أنه كان يحاول أن يقطع بأسرع ما يمكن المسافة المشروعة. وأخيراً فكر: ألا يرجع ذلك إلى بعض العيوب في معطفه. وعندما فحصه جيداً في المنزل اكتشف أنه أصبح في موضعين أو ثلاثة، وبالذات عند الظهر والكتفين، مثل الخيش تماماً، فقد رق نسيجه إلى درجة أن الهواء صار ينفذ خلاله، أما البطانة فقد تهرأت. وينبغي أن نعرف أن معطف أكايي أكاييفتش كان أيضاً مادة لسخریات الموظفين، بل لقد نزعوا عنه اسم المعطف النبيل وسموه قبوطاً. وبالفعل فقد كان شكله غريباً. كانت ياقته تصغر عاماً بعد عام لأنها كانت تستخدم في ترقيع الأجزاء الأخرى. ولم يظهر الترقيع مهارة الخياط، فكانت الرقع تبدو قبيحة وخرقاء. وعندما عرف أكايي أكاييفتش حقيقة الأمر قرر أن يأخذ المعطف إلى بتروفتش، الخياط الذي يقطن في شقة ما بالطابق الرابع من ناحية سلم الخدم والذي كان رغم عوره ووجهه المجدور كله يزاول بنجاح كبير تصليح معاطف الموظفين وسراويلهم وحللهم وما إلى ذلك، بالطبع عندما يكون مفيقاً وليس في رأسه مشاريع أخرى. وما كان هذا الخياط ليستحق منا أن نتحدث عنه كثيراً، ولكن بما أن العادة جرت أن يحدد في القصة طبع كل شخصية بوضوح تام، فلا حيلة إذن، هيا قدموا لنا بتروفتش أيضاً. كان في البداية يدعى ببساطة غريغوري، وكان من رقيق الأرض عند أحد السادة.

ثم أصبح يدعى بتروفتش عندما أعتق وأصبح يسكر بشدة في جميع الأعياد، في البداية في الأعياد الكبيرة، وبعد ذلك دون تمييز في جميع الأعياد الدينية وحيثما وضعت إشارة الصليب أمام أي يوم من أيام التقويم.

وبينما كان أكاكي أكاكيفتش يصعد السلم المؤدي إلى بتروفتش أخذ يفكر في المبلغ الذي سيطلبه بتروفتش وقرر في ذهنه ألا يعطيه أكثر من روبلين. كان الباب مفتوحاً لأن ربة البيت كانت تقلي سمكاً، فملأت المطبخ بالدخان إلى درجة أنه لم يعد من الممكن حتى رؤية الصراصير نفسها. ومر أكاكي أكاكيفتش عبر المطبخ، حتى دون أن يلاحظ ربة البيت ذاتها، إلى أن وصل أخيراً إلى غرفة رأى فيها بتروفتش جالساً على طاولة خشبية عريضة غير مطلية طاوياً قدميه تحت كالباشا التركي. وكانت قدماه كعادة الخياطين الجالسين إلى عملهم، عاريتين. وأول ما لفت نظر أكاكي أكاكيفتش تلك الإصبع الكبيرة المعروفة جداً له ذات الظفر المشوه، الإصبع السمينة القوية كصدفة السلحفاة. ومن رقبة بتروفتش تدلت ثلة من الحرير والخيوط، وعلى ركبتيه حشو ما. كان منذ حوالي ثلاث دقائق يحاول إدخال الخيط في ثقب الإبرة ولا يستطيع ولذلك كان ساخطاً على العتمة، بل وحتى على الخيط نفسه وهو يدمدم بصوت خافت: «لا يدخل هذا الوغد، أيها المعلون، أنهكتني!» وشعر أكاكي أكاكيفتش بالضيق من مجيئه في هذه اللحظة التي كان بتروفتش فيها غاضباً، فقد كان يجب أن يوصي بتروفتش على شيء ما عندما يكون الأخير منتعشاً بعض الشيء أو كما كانت زوجته تقول: «عبّ من الهباب المسكر هذا الشيطان الأعور». ففي مثل هذه الحالة كان بتروفتش في العادة يتنازل ويوافق عن طيب خاطر، بل كان ينحني كثيراً ويلهج بالشكر. صحيح أن زوجته كانت تأتي بعد ذلك وهي تعول وتشكو من أن زوجها كان آنذاك ثملاً ولذلك وافق على ثمن بخس. ولكن الأمر كان ينتهي بزيادة عشر كوبيكات فقط وتسوى الأمور. أما الآن فيبدو أن بتروفتش غير ثمل، ولذلك فهو صعب المراس، لايلين، وسيطلب على الأرجح ثمناً باهظاً. أدرك أكاكي أكاكيفتش ذلك وأراد

كما يقال أني عود أدراجي. ولكنه كان قد بدأ الأمر. زر بتروفتش عينه الوحيدة مسدداً نظرتها الثاقبة إليه، فتفوه أكاكي أكايفتش مسلوب الإرادة:

— مرحباً، يابتروفتش.

فقال بتروفتش:

— مرحباً بكم، يا سيدي.

ونظر بطرف عينه نحو يدي أكاكي أكايفتش رغبة منه في أن يعرف ما هو الصيد الذي جاء به هذا إليه.

— ها أنذا قد جئت إليك، يا بتروفتش، بهذا.. يعني...

وينبغي أن نعرف أن أكاكي أكايفتش كان يعبر عن أفكاره في أغلب الأحوال بحروف الجر والظروف و أخيراً بالأدوات التي ليس لها أي معنى على الإطلاق. أما إذا كانت المسألة صعبة جداً فقد كان من عادته ألا ينهي الجملة أبداً، ولذلك كان كثيراً ما يبدو حديثه بهذه الكلمات: «هذا في الواقع... يعني تماماً..» وبعد ذلك لا يقول شيئاً، وينسى هو نفسه، وهو يظن أنه قد قال كل شيء.

— ما هذا؟ — قال بتروفتش وتفحص أثناء ذلك بعينه الوحيدة حلة أكاكي أكايفتش كلها ابتداءً من الياقة حتى الأكمام والظهر والصدر والعراوي أي كل ما كان معروفاً لديه جيداً لأنه كان من صنع يديه. تلك عادة الخياطين، وهذا أول ما يفعله الخياط عندما يلتقك.

— وها أنذا، يابتروفتش، يعني... المعطف... الجوخ.. انظر، في كل مكان آخر مازال متيناً، لقد تعفر قليلاً، ويبدو وكأنه قديم، لكنه جديد، فقط في مكان واحد يعني... على الظهر، وأيضاً هنا على كتف واحدة تلف قليلاً، وعلى هذه الكتف أيضاً قليلاً، أترى، هذا كل شيء. عمل قليل...

أخذ بتروفتش القبوط وبسطه على الطاولة أولاً وفحصه طويلاً وهز رأسه ومد يده إلى النافذة ليأخذ علبة السعوط المستديرة والمرسوم عليها صورة جنرال ما، لا يعرف أي جنرال هو لأن المكان الذي كان وجهه مرسوماً عليه قد ثقب وغطى بقطعة ورق مربعة واستنشق

بتروفتش السعوط وبسط المعطف بين يديه وفحصه في مواجهة النور وهز رأسه ثانية. ثم قلبه، فجعل بطانته إلى أعلى وهز رأسه من جديد، ونزع من جديد غطاء العلبة بصورة الجنرال المغطى بورقة، وبعد أن حشا أنفه بالسعوط أغلق العلبة وخبأها وأخيراً قال:

— كلا، لا يمكن إصلاحه، ملبس بال.

أحس أكاكي أكاكيفتش عند سماعه هذه الكلمات بوحزة في قلبه.

— ولماذا لا يمكن، يابتروفتش؟ — قال بصوت ضارع كصوت الطفل تقريباً. — كل

مافيه أنه أصبح خفيفاً عند الكتفين وأنت لديك حتماً قطع ما..

— نعم، يمكن أن أجد قطعاً، القطع موجودة، — قال بتروفتش.

— لكن لا يمكن تثبيتها. النسيج مهترئ تماماً. ما إن تلمسه بالإبرة حتى يتفسخ.

— فليتفسخ، أما أنت فلتضع رقعة على الفور.

— ليس هناك ماتوضع عليه الرقعة، لا يوجد ماتثبت عليه، إنه مستهلك جداً. الاسم

فقط جوخ، ولكن لو هبت عليه الريح فسيتطاير.

— حاول أن تثبتها. كيف إذن في الواقع يعني؟!

— كلا، — قال بتروفتش بحسم. — لا يمكن عمل شيء. أما المعطف فيبدو أنك

ستضطر إلى تفصيل واحد جيد.

عند سماع كلمة «جديد» غامت عينا أكاكي أكاكيفتش، واختلط أمام نظره كل

مكان في الغرفة. لم يرَ بوضوح سوى الجنرال بوجهه المغطى بورقة على غطاء علبة سعوط بتروفتش.

— معطف جديد.. كيف؟ — قال وكأنما لا يزال نائماً. — ليس لدي نقود لذلك.

— نعم، جديد، — قال بتروفتش بهدوء وحشي.

— وإذا اضطررت إلى معطف جديد فكيف يعني هو...

— تقصد كم يساوي؟

— نعم.

— ثلاث ورقات من فئة الخمسين أو أكثر قليلاً سيكون عليك أن تدفع، — قال بتروفتش وزم شففيه زمة ذات مغزى. كان يجب جداً التأثيرات القوية، كان يجب أن يربك من أمامه فجأة بطريقة ما، ثم ينظر بعد ذلك بطرف عينيه إلى التعبير الذي يكسو ملامح الشخص المرتبك بعد سماع كلمات الخياط.

وصرخ أكاكي أكايفتش المسكين:

— مائة وخمسون روبلاً لمعطف! — صرخ ربما لأول مرة في حياته، فقد كان معروفاً دائماً بصوته الخافت.

— نعم، — قال بتروفتش. — وهذا يتوقف أيضاً على نوع المعطف. فلو وضعنا على الياقة فراء سنسار وبطنا القلنسوة بالحرير فيصل إلى المائتين.

— بتروفتش، أرجوك، — قال أكاكي أكايفتش بصوت ضارع وهو لا يسمع ولا يحاول أن يسمع ماقاله بتروفتش من كلمات وجميع تأثيراته. — أصلحه بأي شكل، لكي أستخدمه ولو فترة أخرى.

— كلا، هذا لا يمكن. سيكون ذلك إهداراً للعمل وتضييعاً للنقود عبثاً، — قال بتروفتش، فخرج أكاكي أكايفتش من عنده بعد هذه الكلمات محطماً تماماً.

أما بتروفتش فقد ظل بعد خروج واقفاً مدة طويلة وقد زم شففيه زمة ذات مغزى، وهو لا يشرع في العمل، وقد أراضاه أنه لم يفرط في كرامته، كما أنه لم يخن فنه كخياط.

عندما خرج أكاكي أكايفتش إلى الشارع كان كأنما في حلم. ومضى يحدث نفسه: «يا له من أمر، يا لها من قضية. في الحقيقة لم أكن أظن أن المسألة يعني ستكون...». وبعد فترة صمت استطرد: «هكذا إذن! هذه هي النتيجة إذن. أنا في الحقيقة لم أستطع حتى أن أتوقع أن يكون هكذا». وبعد أن صمت طويلاً مرة أخرى قال: «هكذا إذن. هذا حقاً غير متوقع أبداً يعني... أبداً لكن... يا لها من مسألة!» وبعد أن قال ذلك وبدلاً من أن يذهب إلى البيت سار في اتجاه آخر تماماً، وهو لا يدري. وفي الطريق احتك به منظف مداخن بجنبه الملوث، فسودّ له كتفه كلها. وانمال عليه كوم من الملاط من قمة

متزل يجري بناؤه. فلم يلاحظ ذلك كله، وفيما بعد عندما اصطدم بالدركي الذي كان قد اسند بلطته إلى جواره وأخذ ينفذ التبغ من علبة تبغه فوق راحته الخشنة، عندها أفاق أكاكي أكاكيفتش قليلاً، وذلك فقط لأن الحارس قال له: «مالك تندفع مصطدماً بالسحنة، أليس أمامك رصيف؟» وقد جعله ذلك ينتبه ويعود أدراجه إلى المتزل. وهنا فقط بدأ يستجمع شتات أفكاره، فرأى وضعه في صورته الحقيقة الواضحة وأخذ يحدث نفسه لابعبارات متقطعة، بل بحكمة وصراحة كأنما يتحدث إلى زميل راجح يمكن أن تفضي إليه بأخص أسرار القلب. قال أكاكي أكاكيفتش: «لا، لا يمكن. الكلام مع بتروفتش الآن مستحيل، فهو الآن يعني.. يبدو أن زوجته ضربته علقه بشكل ما. الأفضل أن أذهب إليه صباح الأحد. فبعد السبت سيكون زائغ النظرات ونعسان وبحاجة إلى الشراب، وزوجته لن تعطيه نقوداً. وعندئذ أدس يعني في يده عشرة كوكبيكات، فيصبح الاتفاق مع أسهل، وعندئذ سيأخذ المعطف يعني...» هكذا حدث أكاكي أكاكيفتش نفسه وشجعها، وانتظر حلول يوم الأحد، وعندما رأى من بعيد زوجة بتروفتش تخرج لأمر ما من المتزل، توجه إليه مباشرة. وبالفعل كان بتروفتش تخرج لأمر ما من المتزل، توجه إليه مباشرة. وبالفعل كان بتروفتش بعد السبت زائغ النظرات بشدة، ورأسه مدلى نحو الأرض، وكان نعسان جداً. ورغم كل ذلك فما أن عرف بالأمر حتى اعتدل كأنما وخزه الشيطان وقال: «لا يمكن.. فلتتكرم بتفصيل معطف جديد». وهنا دس أكاكي أكاكيفتش في يده عشرة كوكبيكات. فقال بتروفتش: «أشكرك، ياسيدي، سأشرب قليلاً في صحتك. أما بخصوص المعطف فلا تقلق، إنه لا ينفذ لأية منفعة. سأحيط لك معطفاً جديداً عظيماً، على هذا اتفقنا».

وأراد أكاكي أكاكيفتش أن يفتح فمه ليتحدث عن التصليح، ولكن بتروفتش لم يصغ إليه وقال: «سأحيط لك واحداً جديداً من كل بد، وبوسعك أن تعتمد عليّ في ذلك، سأبذل جهدي. ومن الممكن حسن الموضة الآن أن أركب الياقة بمشابك فضية».

وعندها أدرك أكاكي أكاكيتش أنه لا يمكن التنصل من تفصيل معطف جديد، فانهار تماماً. وبالفعل كيف يمكن أن يفصله، بأية نقود؟ ومن أين له؟ بالطبع كان من الممكن الاعتماد جزئياً على المكافأة القادمة بمناسبة العيد، ولكن هذا المبلغ قد وزع وحددت أوجه إنفاقه سلفاً منذ زمن بعيد. فقد كان من المطلوب اقتناء سروال جديد وستديد دين قديم للإسكافي مقابل تركيب رقبة جديدة للحذاء القديم، وكان عليه أيضاً أن يوصي الخياطة على ثلاثة قمصان على قطعتين من تلك الملابس التي لا يليق ذكر اسمها في نص مطبوع، وباختصار كان من المفروض إنفاق المبلغ كله، حتى لو تكرم المدير وصرف له بدلاً من الأربعين روبلاً المقررة خمسة وأربعين أو خمسين فلن يتبقى منها مع ذلك سوى شيء تافه لن يكون في رصيد المعطف سوى قطرة في بحر. رغم أنه كان يعرف طبعاً أنه كان من عادة بتروفتش أحياناً أن يطلب فجأة مبلغاً لا يعقل، حتى أن زوجته كانت لا تتمالك نفسها فتصيح به: «ماذا دهاك، هل جننت، أيها الأحمق؟! مرة لا يرضى أن يعمل بأي حال، والآن يدفعه الشيطان إلى طلب سعر لا يساويه هو نفسه». ورغم أنه كان يعرف طبعاً أن بتروفتش سيفصل له المعطف حتى مقابل ثمانين روبلاً، ومع ذلك فمن أين يأتي بالثمانين روبلاً هذه؟ ربما أمكن تدبير نصف المبلغ، نعم، ربما وجد نصفه، بل وربما أكثر قليلاً، ولكن من أين يأتي بالنصف الآخر؟.. ولكن ينبغي أولاً أن يعرف القارئ من أين جاء النصف الأول. كان من عادة أكاكي أكاكيتش أن يوفر من كل روبل ينفقه نصف كوبيك ويضعه في صندوق صغير بقفل ذي فتحت في غطاءه لإلقاء النقود فيها. وكان كل نصف عام يغير قطع النقود النحاسية المتجمعة هناك بقطع فضية. هكذا كان يفعل منذ زمن طويل، وعلى هذا النحو تجمع لديه خلال عدة سنوات مبلغ يفوق الأربعين روبلاً. وهكذا فقد كان معه نصف المبلغ، ولكن من أين يأتي بالنصف الآخر؟ وفكر أكاكي أكاكيتش طويلاً، ثم قرر أنه ينبغي عليه أن يخفض نفقاته العادية، ولو خلال عام واحد على الأقل: أن يمتنع عن تناول الشاي كل مساء، ولا يشعل الشمعة مساءً، فإذا تطلب الأمر أن يعمل فليذهب إلى غرفة صاحبة البيت ويعمل هناك على ضوء شمعها وأن يسير في الشارع بأقصى ما يمكن من الخفة والحذر وهو يخطو فوق الأحجار والبلاط على أطراف أصابعه

تقريباً لكي لا يلى نعله بسرعة و أن يقلل ما أمكن من إعطاء ملابسه للغسالة، وحتى لا تبلى فعليه أن يجعلها كلما عاد إلى المنزل وبقى فقط في الروب القطني العتيق جداً والذي رأف بحاله حتى الزمن نفسه. وللحقيقة ينبغي أن نقول أنه كان من الصعب عليه إلى حد ما في البداية أن يعود على هذه القيود، ولكنه ألفها فيما بعد وسارت الأمور على مايرام، يبل أنه تعود تماماً على الجوع في المساء وفي المقابل فقد كان يتغذى معنوياً، وهو يحمل في خاطره الفكرة الخالدة عن المعطف المقبل. ومنذ تلك اللحظة بدا وكأن وجوده نفسه أصبح أكثر اكتمالاً، وكأنما تزوج، كأنما أصبح يلزمه شخص ما، كأنما لم يعد وحيداً، بل وافقت شريكة حياة لطيفة على أن تمضي معه في درب الحياة، ولم تكن شريكة الحياة تلك سوى المعطف ذي الحشوة القطنية السميكة والبطانة المتينة التي لاتعرف البلى. وأصبح أكافي أكافيتش أكثر حيوية، بل وأصبحت شخصيته أكثر صلابة كشخص حدد لنفسه هدفاً وسعى إليه. واختفت من وجهه ومسلكه تلقائياً الشكوك والتردد أي كل الملامح المتذبذبة وغير المحددة. وكانت عيناه تتوقدان أحياناً، وكانت أكثر الخواطر جرأة وجسارة تومض في ذهنه: «فماذا لو ركب فعلاً ياقة من فراء السنسار!» وكاد التفكير في ذلك أن يجعله نبأاً لشروود الذهن. فذات مرة أوشك أن يخطئ وهو ينسخ الأوراق حتى أنه صاح بصوت مسموع تقريباً: «أوه!» ورسم علامة الصليب. وكان كل شهر يزور بتروفتش مرة على الأقل لكي يتحدث عن المعطف: وأين يستحسن أن يشرقي الجوخ ومن أي لون وبأي ثمن، وكان يعود من عنده مهموماً بعض الشيء، إلا أنه كان يعود راضياً دائماً وهو يفكر في أنه سيأتي أخيراً ذلك الزمن الذي سيشتري فيه كل ذلك ويصبح المعطف جاهزاً. بل لقد سارت الأمور بأسرع مما كان يتوقع. فخلافاً لكل الأحلام قرر المدير لأكافي أكافيتش لا أربعين أو خمسة وأربعين روبلاً، بل ستين روبلاً كاملة. وسواء أحسّ المدير أن أكافي أكافيتش بحاجة إلى معطف أم أن ذلك حدث عفواً فقد أصبح لديه نتيجة لذلك عشرون روبلاً زيادة. وعجل هذا الوضع بسير الأمور. فبعد شهرين أو ثلاثة من الجوع البسيط أصبح لدى أكافي أكافيتش بالضبط حوالي ثمانين روبلاً. وبدأ قلبه الذي كان هادئاً للغاية بصفة عامة، يدق. وفي نفس اليوم ذهب مع بتروفتش إلى المحلات. وابتاعاً

قماشاً جيداً جداً. ولا عجب. فقد كان يفكران في ذلك قبلها بنصف عام، ونادراً ما مر شهر دون أن يذهبا إلى المحلات للنظر في الأسعار. وفي المقابل فقد قال بتروفتش نفسه أنه ليس هناك جوخ أفضل منه. واختار للبطانة قماشاً بفتة، ولكنه كان متيناً وسميكاً وحسب كلام بتروفتش أفضل من الحرير، بل وكان منظره أهى وأكثر لمعاناً. ولم يشتريا فراء السنسار لأنه كان بالفعل غالياً، وبدلاً منه اختاروا فراء قط أفضل لم يجدا غيره في المحل، فراء قط يمكن دائماً أن تظنه فراء سنسار إذا نظرت إليه من بعيد. واستغرق بتروفتش أسبوعين في خياطة المعطف لأنه تطلب الكثير من التنجيد، ولولا ذلك لفرغ منه قبل ذلك.

وأخذ بتروفتش اثني عشر روبلاً أجراً، ولم يكن من الممكن إعطاؤه أقل من ذلك: فقد كانت الخياطة كلها بخيوط من الحرير وبخياطة دقيقة مزدوجة، ومر بتروفتش على كل الخياطة بأسنانه بعد ذلك مزيلاً بها شتى التواءات. وكان ذلك في .. من الصعب أن نقول في أي يوم كان ذلك بالضبط، ولكنه على الأرجح كان أكثر الأيام مهابة في حياة أكاكي أكايفتش، وذلك عندما جاءه بتروفتش أخيراً بالمعطف. جاء به في الصباح بالضبط تماماً قبيل الوقت الذي كان على أكاكي أكايفتش فيه أن يذهب إلى الإدارة. وجاء هذا المعطف في وقت ليس هناك ماهو أكثر منه مناسبة: فقد بدأ بالفعل الصقيع الشديد، وبدأ أنه ينذر بمزيد من البرد. وجاء بتروفتش بالمعطف كما ينبغي أن يأتي خياط جيد. فقد ظهر على وجهه تعبير أهمية لم يره أكاكي أكايفتش عليه من قبل قط. وبدأ أنه يدرك إلى أقصى حد أنه أنجز عملاً كبيراً وأنه كشف فجأة في نفسه عن الهوة التي تفصل بين الخياطين الذين يركبون البطانات فقط ويصلحون الملابس والخياطين الذين يخطون الملابس الجديدة. وأخرج بتروفتش المعطف من المنديل الذي لفه به. وكان المنديل خارجاً من أيدي الغسالة لتوه. وقد لفه بتروفتش بعد ذلك ووضع في جيبه للاستعمال. وبعد أن أخرج المعطف نظر إليه بزهو شديد وأمسكه بكلتا يديه، ثم ألقى به بمهارة شديدة على كتفي أكاكي أكايفتش. ثم شده وسوّاه بيده من الخلف إلى أسفل. ثم مر بيده على المعطف، وهو مسدل على كتفي أكاكي أكايفتش. ولكن أكاكي أكايفتش كرجل متقدم في العمر

أراد أن يجرب المعطف وقد ارتداه بأكمامه. فساعده بتروفتش على ارتداء بأكمامه، فظهر أنه جيد بالأكمام أيضاً. وباختصار فقد اتضح أن المعطف كان على مقاسه بالضبط. ولم ينس بتروفتش بهذه المناسبة أن يقول أنه فقط لأنه يعيش بدون لافتة وفي شارع صغير وفوق ذلك يعرف أكاكي أكاكيتش منذ فترة طويلة فقد تقاضى أجراً قليلاً إلى هذا الحد. أما في شارع «نيفسكي» فكانوا سيأخذون منه خمسة وسبعين روبلاً على الخياطة فقط. ولم يشأ أكاكي أكاكيتش أن يجادل بتروفتش في ذلك، وعلاوة على ذلك فقد كان يخاف من تلك المبالغ القوية التي كان يحلو لبتروفتش أن يوهم بها الزبائن. فنقده أجروه وشكره وخرج على الفور في المعطف الجديد إلى الإدارة. وخرج بتروفتش في أثره ووقف في الشارع ينظر طويلاً إلى المعطف من بعيد. ثم انعطف عن عمد إلى حارة ملتوية لكي يختصر الطريق ويعود إلى الشارع ثانية وينظر مرة أخرى إلى المعطف ولكن ناحية أخرى أي من الوجه مباشرة. بينما كان أكاكي أكاكيتش يسير ومشاعر البهجة تغمره. كان يشعر كل لحظة بأن على كتفيه معطفاً جديداً، بل وضحك عدة مرات من السرور الداخلي. وبالفعل فقد كانت هناك منفعتان: واحدة هي أنه دافئ والأخرى أنه حسن. ولم يلحظ الطريق أبداً ووجد نفسه في الإدارة فجأة. وفي غرفة الحاجب خلع المعطف وتفحصه من جميع الجهات ووضع في رعاية الحاجب الخاصة. ولانعرف كيف علم جميع من في الإدارة فجأة أن لدى أكاكي أكاكيتش معطفاً جديداً، وأن معطفه السابق لم يعد له وجود بعد. وفي نفس اللحظة هرول الجميع إلى غرفة الحاجب ليروا معطف أكاكي أكاكيتش الجديد. وراحوا يهنتونه ويحيونه، حتى أنه في البداية أخذ يبتسم فقط، ثم شعر بعد ذلك بالخجل. وعندما أخذ الجميع، وقد أحاطوا به، يقولون أنه لابد من تدشين المعطف الجديد وأنه ينبغي عليه على الأقل أن يقيم لهم جميعاً حفلاً، ارتبك أكاكي أكاكيتش تماماً، ولم يعرف ماذا يفعل وبم يرد وكيف يتخلص. وبعد بضع دقائق، وقد أحمر كله، راح يؤكد لهم بسلامة نية أن هذا المعطف ليس جديداً أبداً وإنما هكذا مجرد معطف قديم. وأخيراً قال أحد الموظفين، بل كان أحد مساعدي رئيس القلم، ربما لكي يظهر أنه ليس متكبراً أبداً، بل ويتعامل مع من هم أدنى منه، قال: «طيب، فليكن. أنا سأقيم حفلاً بدلاً من أكاكي أكاكيتش، وأدعوكم

اليوم لتناول الشاي. واليوم بالمناسبة عيد ميلادي». وعلى الفور هنا الموظفون مساعد رئيس القلم وقبلوا دعوته بكل سرور. وأراد أكاكي أكايفتش أن يعتذر، ولكن الجميع راحوا يقولون إن ذلك لا يليق وإنه شيء معيب ومخجل، فلم يستطع أبداً أن يرفض الدعوة. وعلى العموم فقد شعر فيما بعد بالسرور عندما تذكر أن ذلك سيتيح له فرصة السير مساءً أيضاً في المعطف الجديد. وكان هذا اليوم كله بالنسبة لأكاكي أكايفتش كأنما أكبر وأبهي عيد. وعاد إلى البيت في أسعد حالة ونزع المعطف وعلقه بحرص على الجدار، وقد ملئ عينيه مرة أخرى من الجوخ والبطانة، ثم أخرج معطفه القديم عمداً بقصد المقارنة، ذلك المعطف الذي تهرأ تماماً. تطلع إليه، فضحك هو نفسه منه، فما أبعد الفرق بينهما! وظل بعد ذلك وطوال الغداء يضحك كلما خطرت له حالة معطفه السابق. وتناول الغداء بمرح، ولم ينسخ شيئاً بعد الغداء، لم يسمك بأية أوراق، بل تمرغ في فراشه قليلاً حتى هبط الظلام. ثم ارتدى المعطف دون تسوية وخرج إلى الشارع. وللأسف فإننا لانستطيع أن نقول أين كان يسكن الموظف الذي دعاه، فقد بدأت الذاكرة تخوننا بشدة، فاختلط علينا كل شيء في بطرسبورغ. واندجت كل البيوت والشوارع في الرأس، حتى أصبح من الصعوبة بمكان أن نستخرج منها شيئاً ما في صورة متسقة. وأياً كان الأمر إلا أن الشيء الصحيح على الأقل هو أن الموظف كان يسكن في أحسن مناطق بطرسبورغ، وبالتالي بعيداً جداً عن أكاكي أكايفتش. كان على أكاكي أكايفتش في البداية أن يمر عبر بعض الشوارع المقفرة ذات الإضاءة الهزيلة. ولكن بقدر اقترابه من شقة الموظف أصبحت الشوارع أكثر حيوية وحركة إضاءة. وبدأ المارة يلوحون أكثر، ولاحت السيدات الأنيقات، وظهرت على الرجال ياقات من فراء السمور، ولم تظهر إلا نادراً الزحافات الشعبية الخشبية المليئة بالمسامير المذهبة، وعلى العكس من ذلك كثر الحوذيون المندفعون بسرعة بطواقهم المخملية القرمزية، بزحافهم المطلية باللاك اللامع وبالأغطية المصنوعة من جلود الدببة، وكانت العربات ذات مقاعد الحوذية المزينة تنهب الشارع وعجلاهما تصر على الثلج. وتطلع أكاكي أكايفتش إلى ذلك كله وكأنما يراه للمرة الأولى. إذ لم يخرج من داره مساء منذ عدة سنوات. وتوقف بفضول أمام واجهة متجر مضاء ليتفرج على

لوحة كانت تصور امرأة ما جميلة تخلع حذاءها كاشفة بذلك عن ساقها كلها، وكانت ساقاً لا بأس بها أبداً. ومن خلفها أطل من باب غرفة أخرى رجل بسالفين ولحية جميلة تحت شفثيه. وهز أكاكي أكايفتش رأسه وضحك ضحكة قصيرة، ثم مضى في حال سبيله. فهل ياترى ضحك لأنه رأى شيئاً غير معروف له، ولكنه مع ذلك يترك في نفس كل من يراه حدساً ما، أم أنه ضحك لأنه فكر مثل كثيرين من الموظفين بهذه الصورة: «آه من هؤلاء الفرنسيين! ماذا بوسعك أن تقول... فهم إذا أرادوا شيئاً ما يعني فهو بالضبط يعني...» وربما لم يفكر حتى في هذا، فمن الصعب أن تقحم نفسك في دخيلة إنسان ما لتعرف فيم يفكر.

وأخيراً وصل إلى البيت الذي كان يقطنه مساعد رئيس القلم.

كان مساعد رئيس القلم يحيا في مجبوحة من العيش: فعلى سلم المدخل كان مصباح مضاء، وكانت شقته في الطابق الثاني. وعندما دخل أكاكي أكايفتش إلى الردهة رأى على الأرض صفوفاً من الخوف. وبينها، في وسط الغرفة كان هناك سمار يغلي وينفث سحباً من البخار. وعلى الجدران علقّت معاطف و أردية. كان من بينها معاطف بياقات من فراء السمور أو بطيات صدور من المخمل. وتناهى من وراء الجدار صخب ولغط أصبح فجأة واضحاً ورنانين عندما فتح الباب وخرج منه خادم يحمل صينية غاصة بالأكواب الفارغة ودورق حليب وسلسلة خبز مجفف. وكان واضحاً أن الموظفين مجتمعون مدة طويلة وقد شربوا أول كوب شاي. وبعد أن علق أكاكي أكايفتش معطفه بنفسه دخل الغرفة، وفي نفس الوقت لاحت أمام ناظريه الشموع والموظفون والغلايين وموائد لعب الورق، وأصم سمعه حديث متصاعد من جميع الجهات وجلبة مقاعد يحركونها. فتوقف في وسط الغرفة مرتبكاً تماماً، وهو يبحث ويحاول أن يجد لنفسه شيئاً يفعل. ولكنهم كانوا قد لاحظوا وجوده، فاستقبلوه بالصياح ومضوا على الفور إلى الردهة وتفرجوا على معطفه مرة أخرى. ورغم أن أكاكي أكايفتش كان محرّجاً بعض الشيء،

ولكنه، إذ كان شخصاً سليم النية، لم يستطع إلا أن يفرح، وهو يرى أن الجميع يمتدحون المعطف. وبعد ذلك بالطبع تركوه ومعطفه واتجهوا كما هو متبع إلى موائد لعب الورق. وكان كل ذلك: الصخب واللغط وهذا الحشد من الناس، كان كل ذلك عجباً بالنسبة لأكاكي أكايشتش. لم يكن يدري كيف يتصرف ولا ماذا يفعل بيديه وساقيه وجسمه كله. وأخيراً جلس إلى اللاعبين وتطلع إلى أوراق اللعب وحدق في وجه هذا وذاك وبعد فترة من الوقت بدأ يتثائب ويشعر بالملل خاصة وأنه قد حان منذ زمن بعيد الموعد الذي كان عادة يأوي فيه إلى الفراش. وأراد أن يستأذن من رب الدار في الانصراف، ولكنهم لم يسمحوا له قائلين إنه لابد من تناول كأس شنبانيا بمناسبة المعطف الجديد. وبعد ساعة قدموا العشاء المكون من سلطة روسية ولحم عجول بارد وكبد مهروس وقطع جاتوه وشنبانيا. وأجبروا أكايشتش على شرب كأسين من الشنبانيا أحس بعدهما أن الجو في الغرفة أصبح أكثر مرحاً، إلا أنه لم يستطع أبداً أن ينسى أن الساعة بلغت الثانية عشرة وأن وقت عودته إلى البيت قد حان منذ زمن بعيد. ولكيلا يحاول صاحب البيت أن يستبقه بطريقة ما خرج أكايشتش من الغرفة بهدوء، وبحث عن معطفه في الردهة، فوجده للأسف ملقى على الأرض، فتناوله وتفحصه ونزع منه كل ما علق به من زغب ووضع على كتفيه ونزل على السلم إلى الشارع. كان الشارع لا يزال مضيئاً. وكانت بعض المتاجر الصغيرة، هذه النوادي الدائمة للبوابين وغيرهم من الناس، لا تزال مفتوحة، أما البعض الآخر المغلق فكان يصدر عنه رغم ذلك شريط ضوء طويل عبر شق الباب كله، الأمر الذي يدل على أنه لم تخل بعد من تجمع بشري، إذ يبدو أن البوابين والسياس أو الخدم يوشكون على الفراغ من أحاديثهم ورواياتهم موقعين أسيادهم في حيرة كاملة بخصوص أماكن تواجدهم. سار أكايشتش مرح النفس حتى أنه هم بالركض فجأة لسبب مجهول وراء سيدة ما مرقت بجواره كالبرق، وكان كل طرف من أطراف جسدها مفعماً بحركة غير عادية. إلا أنه مع ذلك توقف على الفور وسار كما في السابق بهدوء شديد ودهش هو نفسه من ركضه الذي لا يعرف من أين حل عليه وسرعان ما امتدت أمامه تلك الشوارع الخاوية التي لا تتسم بمرح خاص حتى في النهار، فما بالك

بالمساء. لقد أصبحت الآن أكثر خواء وعزلة. وومضت المصابيح أضعف، إذ يبدو أن الزيت فيها أصبح قليلاً. وبدأت تلوح المنازل الخشبية والأسيجة. ولم يكن هناك أحد على الإطلاق. الثلج فقط هو الذي كان يلمع في الشوارع، ولاحت الأشباح السوداء الحزينة للأكواخ المنخفضة النائمة بنوافذها الموصدة الشيش. واقترب من ذلك المكان الذي كان الشارع يتقاطع فيه مع ميدان لانهائية له لاتكاد المنازل تبين في طرفه الآخر. وكان هذا الميدان يبدو كصحراء رهيبة.

ومن بعيد، من مكان لا يعلمه إلا الله، ومض ضوء في كشك حراسة بدا وكأنه قائم في آخر الدنيا. وهنا انخفض مرح أكاي أكايفتش إلى حد كبير. ودخل الميدان بإحساس لا إرادي بالخوف كأنما كان قلبه يحدهه بشر. ونظر خلفه وتلفت حواليه. فبدا ما حوله وكأنه بحر. فقال في نفسه: «كلا، من الأفضل ألا أنظر»، — وسار مغمض العينين، وعندما فتحهما ليعرف هل أوشك الميدان على الانتهاء أم لا، رأى أمامه فجأة، تحت أنفه تقريباً، شخصين ما بشوارب، ولكنه لم يستطع حتى أن يميز أي شخصين هما. وغامت عيناه وخفق قلبه بعنف. «ولكن هذا المعطف معطفي!» — قال أحدهما بصوت راعد وأمسك بياقة معطفه. وأراد أكاي أكايفتش أن يصرخ: «النجدة!»، ولكن الآخر دس أمام فمه مباشرة قبضة بحجم رأس موظف ودمدم: «حاول أن تصرخ». ولم يشعر أكاي أكايفتش إلا وهما يترعان عنه المعطف، ثم ركلاه ركلة قوية، فسقط على وجهه فوق الثلج، ولم يعد يشعر بشيء أكثر من ذلك. وبعد بضع دقائق عاد إلى وعيه، فنهض على قدميه، ولكن لم يكن هناك أحد. وأحس أن الجو بارد وأن المعطف ليس موجوداً، فأخذ يصرخ، ولكن صوته كما بدا لم يكن ينوي أن يبلغ آخر الميدان. فانطلق أكاي أكايفتش يركض في يأس، وهو لا يكف عن الصراخ، متجهاً، عبر الميدان إلى كشك الحراسة مباشرة حيث كان الدركي يقف متكئاً إلى البلطة. وهو يتطلع فيما يبدو بفضول ويريد أن يعرف أن شيطان دفع هذا الشخص إلى الركض نحوه صارخاً من بعيد. وعندما بلغه أكاي أكايفتش راح يصرخ بصوت محتق بأنهم نائم ولا يحرس شيئاً ولا يرى كيف

ينهبون الناس. فأجاب الدركي بأنه لم يرَ شيئاً وأنه رأى كيف استوقفه شخصان وسط الميدان، ولكنه ظن أنهما من معارفه. وأنه بدلاً من السباب عبثاً فمن الأفضل أن يذهب غداً إلى المفتش، وسيعثر المفتش على من سرق المعطف. وعاد أكاكي أكايفتش إلى المنزل في اضطراب تام، فقد تبعر شعره الذي تبقى لديه بكمية صغيرة عند صدغيه ومؤخرة رأسه، وكان جنبه وصدره وسرواله ملوثة بالثلج كلها. وعندما سمعت العجوز، صاحبة شقته دقاً رهيباً على الباب نهضت من فراشها على عجل وركضت بفردة شبشب واحدة في قدمها لتفتح الباب وقد شدت بإحدى يديها القميص على صدرها من التواضع. ولكن عندما فتحت الباب تراجعت إلى الخلف إذ رأت أكاكي أكايفتش في هذه الهيئة. وعندما قص عليها ما حدث له أشاحت بيديها وأشارت عليه بأن يذهب مباشرة إلى مأمور القسم، لأن شطري الحي سيخذه، فسيعده بالبحث، ثم يماطل بعد ذلك. أفضل شيء أن يذهب المأمور مباشرة، بل إنها تعرف المأمور لأن آنا الفنلندية التي كانت تعمل عندها طاهية، أصبحت تعمل الآن عند المأمور مربية، كما أنها كثيراً ما تراه شخصياً عندما يمر بجوار منزلهم، كما أن يتردد على الكنيسة كل أحد ليصلي وفي الوقت نفسه يتطلع إلى الجميع بمرح، ولذلك فهو على ما يبدو رجل طيب. وبعد أن سمع أكاكي أكايفتش هذا القرار جر ساقيه حزيناً إلى غرفته. أما كيف قضى ليلته فلنترك الحكم على ذلك لمن يستطيع أن يتخيل ولو إلى حد ما وضع شخص آخر. وفي الصباح الباكر مضى إلى المأمور، فقيل له إنه نائم. وعاد في العاشرة، فقيل له ثانية إنه نائم. فعاد في الحادية عشرة، فقيل له أن المأمور غادر البيت. فعاد ساعة الغداء، إلا أن الكتبة في المدخل لم يريدوا أن يسمحوا له بالدخول وأصروا على أن يعرفوا الغرض من زيارته وماذا يريد وماذا حدث. لكن أكاكي أكايفتش أراد أخيراً أن يبدو صلابة ولو مرة في حياته، فقال بلهجة قاطعة أنه يريد مقابلة المأمور نفسه وأنهم لا يملكون الحق أن يمنعوه من مقابلته وأنه جاء من الإدارة في عمل رسمي وأنه سوف يشكوهم وعندئذ سيرون. ولم يستطع الكتبة أن يقولوا شيئاً أمام ذلك، فذهب أحدهم لاستدعاء المأمور. وكان موقف المأمور من روايته عن السرقة غريباً للغاية. فبدلاً من أن يوجه اهتمامه إلى النقطة الأساسية في الموضوع راح يسأل أكاكي أكايفتش لماذا

عاد في هذه الساعة المتأخرة وألم يعرج في الطريق على أحد المنازل المشبوهة حتى أن أكاي أكايفتش أخرج تماماً وخرج من عنده، وهو لا يعرف هل ستسير قضية معطفه كما ينبغي أم لا. لقد قضى هذا النهار كله غائباً عن العمل (المرّة الوحيدة في حياته). وفي اليوم التالي جاء شاحباً وفي قبوطه القديم الذي أصبح أكثر بؤساً. وهزت قصة سرقة المعطف قلوب الكثيرين بالرغم من أنه كان هناك بعض الموظفين الذين لم يتورعوا حتى في هذه المناسبة عن السخرية بأكاي أكايفتش. وقرروا على الفور أن يجمعوا له تبرعاً، إلا أنهم جمعوا مبلغاً تافهاً لأن الموظفين كانوا قد أنفقوا الكثير في الاكتتاب لرسم صورة للمدير وفي شراء كتاب ما اقترحه عليهم رئيس القسم الذي كان صديقاً للمؤلف. وهكذا جمعوا مبلغاً تافهاً للغاية. وقرر أحدهم بوازع من الشفقة أن يساعد أكاي أكايفتش على الأقل بنصيحة طيبة، فأشار عليه ألا يذهب إلى شرطي الحي، إذ بالرغم من أنه قد يحدث أن يتمكن الشرطي رغبة منه في كسب تقدير الرؤساء من العثور على المعطف بطريقة ما، لكن المعطف مع ذلك سيبقى في قسم البوليس ما لم يقدم أكاي أكايفتش أدلة قانونية على ملكيته له. أفضل شيء أن يقصد إحدى الشخصيات الهامة، فهذه الشخصية الهامة تستطيع بالاتصال ومخاطبة من ينبغي أن تدفع القضية بنجاح أكبر. ولم يكن أمام أكاي أكايفتش من مفر، فقرر أن يقصد الشخصية الهامة. ولكن ما هي وظيفة هذه الشخصية الهامة وما هي طبيعة هذه الوظيفة فهذا ما ظل مجهولاً حتى الآن. إنما ينبغي أن نعلم أن إحدى الشخصيات الهامة أصبح منذ فترة قريبة شخصية هامة، أما قبل ذلك فكان شخصية غير هامة. على أية حال فإن منصبه لا يعتبر حتى الآن هاماً بالمقارنة مع المناصب الأخرى الأكثر أهمية. غير أنك ستجد دائماً دائرة من الناس الذي يعتبرون مهماً ما يبدو في عيون الآخرين غير مهم. على أية حال حاول هذه الشخصية الهامة أن يزيد من أهميته بوسائل أخرى كثيرة، وبالتحديد فقد عمل على أن يستقبله الموظفون الصغار على السلم ساعة حضوره إلى وظيفته وألا يجروا أحد على الدخول إليه مباشرة، بل يمضي كل شيء وفق نظام صارم: أن يبلغ المساعد الاعتباري سكرتير المحافظ، ويبلغ سكرتير المحافظ المستشار الاعتباري أو شخصاً آخر، وبهذه الطريقة يبلغ الأمر إليه. هكذا تنتشر

عدوى التقليد إلى كل شيء في روسيا المقدسة، ويحاول كل شخص أن يقلد رئيسه ويشته به. بل إنه يقال إن مستشاراً اعتبارياً ما عندما عينوه رئيساً لإحدى الإدارات الصغيرة المستقلة، اقتطع لنفسه على الفور غرفة خاصة وسماها «غرفة الحضور» ووضع على بابها حجاً ما بياقات حمراء، كانوا يمسون بمقبض الباب ويفتحونه أمام كل وافد على الرغم من أن «غرفة الحضور» كانت لا تتسع إلا بالكاد لطاولة مكتب عادية. لقد كانت أساليب وعادات الشخصية الهامة رصينة ومهيبية ولكن دون تعقيد. كانت الصرامة هي القاعدة الأساسية لنظامه. وكان يقول عادة: «الصرامة والصرامة، ثم الصرامة» وعند الكلمة الأخيرة يحدق في العادة بأهمية في وجه من يخاطبه. رغم أن ذلك على أية حال لم يكن له أدنى مبرر لأن الموظفين العشرة الذين كانوا يشكلون كل الجهاز الحكومي للإدارة، كانوا حتى بدون ذلك مرعوبين بدرجة كافية، فما أن يروه من بعيد حتى يتركوا عنهم أعمالهم ويقفوا في انتباه منتظرين حتى يمر الرئيس عبر الغرفة. وكان حديثه العادي مع مرؤوسيه يتسم بالصرامة ويتألف تقريباً من ثلاث جمل: «كيف تجرؤ؟ هل تعلم مع من تتحدث؟ هل تفهم أمام من تقف؟» على أية حال كان في قراراته رجلاً طيباً، لطيفاً مع رفاقه، خدوماً، إلا أن رتبة الجنرال أفقدته توازنه. فما أن حصل على رتبة الجنرال حتى ارتبك وضل طريقه ولم يعرف أبداً كيف يتصرف. فإذا حدث أن اجتمع مع أناس من مستواه كان يبدو إنساناً وكان ينبغي إنساناً مستقيماً جداً، بل وحتى إنساناً غير غبي في كثير من النواحي. ولكن ما أن يتواجد في مجتمع فيه أشخاص أدنى منه ولو برتبة واحدة حتى يصبح شخصاً لا أمل منه: كان يركن إلى الصمت، ويثير وضعه الشفقة، خاصة وأنه هو نفسه كان يشعر بأنه كان من الممكن أن يقضي وقته بصورة أفضل بكثير. وكانت تبدى في عينيه أحياناً رغبة قوية في المشاركة في أحد الأحاديث أو الانضمام إلى إحدى الحلقات الشيقة، فتصدده عن ذلك فكرة: «ألن يكون ذلك تنازلاً كبيراً من جانبه؟ ألن يكون في ذلك رفع للكلفة، ألن يكون في ذلك إهدار لأهميته؟» ونتيجة لهذه الأفكار يظل دائماً في نفس حالة الصمت التي لا تتغير، فلا يتفوه إلا نادراً بأصوات أحادية المقاطع حتى استحق لقب أضجر إنسان. إلى هذه الشخصية الهامة توجه صاحبنا أكاكي أكاكيفتش

ووصل في وقت غير موات أبداً وغير مناسب أبداً له وإن كان على أية حال مناسباً للشخصية الهامة.

كان صاحبنا الشخصية الهامة في غرفة مكتبه يتحدث، وهو في غاية المرح، مع شخص جاء منذ فترة قريبة، وهو أحد معارفه القدامى ورفيق طفولته الذي لم يره منذ زمن طويل. وفي هذه الأثناء أبلغوه أن شخصاً يدعى بشماتشكين يريد مقابلته. فسأل باقتضاب: «من القادم؟» فأجابوه: «أحد الموظفين». فقال الرجل الهام: «آه، فلينتظر، لاوقت عندي الآن». ومن المناسب هنا أن نذكر أن الرجل الهام قد كذب تماماً: فقد كان لديه وقت، إذ إنه انتهى منذ زمن بعيد من الحديث مع زميله حول كل شيء، ومنذ زمن بعيد أخذت تتخلل حديثهما فترات صمت طويلة، وبين الحين والحين يربت أحدهما على ساق الآخر مردداً: «هكذا، يا إيفان إيراموفتش!» — «نعم، يا ستيفان فارلاموفتش!» ومع ذلك ورغم كل شيء فقد أمر الموظف أن ينتظر لكي يظهر لزميله، هذا الرجل الذي لم يمارس الخدمة منذ زمن بعيد واستقر في داره بالقرية، كم من الزمن ينتظره الموظفون في الردهة. وأخيراً وبعد أن شبعوا من الكلام وبعد أن شبعوا أكثر من الصمت ودخن كل منهما سيجاراً في كراسي وثيرة للغاية بمساند متحركة قال وكأنا تذكر فجأة للسكرتير الذي وقف بجوار الباب حاملاً أوراقاً ليقدم له التقارير: «نعم، أعتقد أن هناك موظفاً ينتظر، أخبره أنه يستطيع أن يدخل». وعندما رأى هيئة أكايي أكاييفتش المستكينة ومعطفه الرسمي القديم التفت نحوه فجأة وقال: «أي خدمة؟» — بصوت قاطع حاسم تدرب عليه من قبل في غرفته على انفراد أمام المرأة، وذلك قبل أسبوع من توليه منصبه الحالي ورتبة الجنرال. وكان أكايي أكاييفتش قد تملكه الوجل قبل ذلك بوقت طويل، فارتبك قليلاً، ثم مضى يسرح له قضيته كيفما استطاع وعلى قدر ما سمحت له طلاقة لسانه مع اللجوء أكثر من أي وقت سبق إلى استخدام كلمة «يعني»، فقال إنه كان لديه معطف جديد تماماً، وها قد ذهب بصورة لا إنسانية، وأنه يتوجه إليه لكي يتشفع له بما لديه يعني ولكي

يخاطب السيد مدير الشرطة أو غيره من المسؤولين لكي يجدوا المعطف. ولسبب ما بدت هذه اللهجة للجنرال خالية من الكلفة، فقال له بصوت قاطع:

— ماهذا، يا سيدي المحترم، ألا تعرف النظام؟ إلى أين جئت؟ ألا تعرف كيف تصرف الأمور؟ كان ينبغي قبل كل شيء أن تقدم طلباً في الإدارة، فيرفع الطلب إلى رئيس القلم، ثم إلى رئيس القسم، ثم إلى السكرتير، وعندئذ يرفعه السكرتير إليّ...

— ولكن، يا صاحب المعالي، — قال أكاكي أكايفتش محاولاً أن يستجمع آخر حفنة تبقّت لديه من الشجاعة، وهو يشعر في الوقت نفسه أن العرق يتصبّب منه بصورة فظيعة. — أنا، يا صاحب المعالي، لم أجرؤ على إزعاج معاليكم إلا الآن السكرتيرين يعني... لا يعتمد عليهم...

فقال ذو الشخصية الهامة:

— ماذا، ماذا، ماذا؟ من أين جئت بهذه الجرأة؟ من أين جئت بهذه الأفكار؟ ماهذا التمرد الذي انتشر بين الشباب ضد الرؤساء والكبار؟

ويبدو أن الشخصية الهامة لم يلاحظ أن أكاكي أكايفتش قد جاوز الخمسين. وبالتالي فلو كان من الممكن اعتباره شاباً فلا يعدو ذلك إلا أن يكون أمراً نسبياً أي بالنسبة لمن هم في السبعين.

— أتدري لمن تقول هذا الكلام؟ هل تفهم أمام من تقف؟ هل تفهم ذلك؟ هل تفهم ذلك؟ إنني أسألك.

وهنا دق بقدمه رافعاً صوته إلى طبقة عالية إلى درجة أنه حتى لو كان الواقف أمامه شخصاً غير أكاكي أكايفتش لأصابه الرعب. أما أكاكي أكايفتش فقد صعق وترنح، واهتز بدنه كله، ولم يتمكن أبداً من الوقوف. ولولا أن الحراس هرعوا راكضين وأسندوه لانهار على الأرض. وحملوه من الغرفة، وهو بلا حراك تقريباً. أما الشخصية الهامة، وقد أرضاه أن تأثير كلماته فاق حتى توقعاته، وانتشى من فكرة أن كلمته قد تفقد الإنسان وعيه، فنظر بطرف عينه إلى صديقه ليعرف كيف ينظر إلى ما حدث، فرأى بإحساس لا يخلو من المتعة أن صديقه في حالة من القلق البالغ، بل وبدأ يشعر بالخوف.

لم يذكر أكاكي أكايفتش مطلقاً كيف نزل على الدرج وخرج إلى الشارع. ولم يكن يحس لا يديه ولا بساقيه. لم يحدث له في حياته أن نهره جنرال بهذا العنف، وعلاوة على ذلك جنرال ليس رئيسه. فسار في العاصفة الثلجية التي كانت تعربد في الشوارع فاغراً فاه، وهو يتخبط بين الأرصفة. وهبت عليه الرياح، كما العادة في بطرسبورغ، من الجهات الأربع كلها ومن جميع الحواري. وعلى الفور أصيب من البرد بورم في زوره، وعندما وصل إلى البيت لم يكن في وسعه حتى أن يتفوه بكلمة. وتروم بدنه كله، فرقد في الفراش. إلى هذه الدرجة يكون التعنيف قوياً أحياناً! وفي اليوم التالي أصيب بحمى شديدة. وبفضل مساعدة جو بطرسبورغ الرحيم سار المرض بأسرع من المتوقع، وعندما جاء الطبيب، فحس نبضه، لم يجد مايشير به سوى الكمادات، وذلك فقط حتى لا يبقى المريض بدون عناية الطب الخيرة. وعلى العموم فقد أعلن الطبيب ساعتها أن نهايته المؤكدة ستحل بعد يوم ونصف. وبعد ذلك قال لربة الدار: «أما أنت، ياسيدي، فلا تضيعي الوقت وجهزي له من الآن تابوتاً من خشب الصنوبر، لأن خشب البلوط سيكون غالياً بالنسبة له». فهل سمع أكاكي أكايفتش هذه الكلمات المشؤومة، وإذا سمعها فهل كان لها عليه تأثير مذهل، وهل شعر بالأسى على حياته الشقية.. نحن لانعرف عن ذلك شيئاً لأن أكاكي أكايفتش كان طوال الوقت يهذي في غيبوبة الحمى. وتوالت على ذهنه الرؤى بلا انقطاع، كل رؤيا أغرب من سابقتها: فمرة يرى الخياط بتروفتش، فيوصيه بتفصيل معطف بفخاخ للصمصام الذين كانوا يبدون له طوال الوقت تحت السرير، فكان يدعو ربة الدار كل لحظة لتنتشل لصاً حتى من تحت البطانية. وتارة كان يسأل لماذا يعلقون قبوطه القديم أمامه، فلديه معطف جديد. وتارة يخيل إليه أنه يقف أمام الجنرال يصغي إلى تعنيفه وهو يقول: «آسف، يا صاحب المعالي». وتارة، وأخيراً، كان يسب متفوهاً بأفطع الكلمات حتى أن ربة الدار العجوز كانت ترسم علامة الصليب، إذ لم تسمع منه قبلاً كلمات كهذه أبداً، خاصة وأن هذه الكلمات كانت تأتي مباشرة بعد عبارة «يا صاحب المعالي». وبعد ذلك كان يهذي بأشياء لامعنى لها تماماً. فلم يكن يفهم منها شيء. الأمر الوحيد الذي كان يبدو واضحاً أن هذه الكلمات والأفكار المشوشة كانت تدور حول

المعطف فقط. وأخيراً لفظ أكاكي أكاكيفتش المسكين آخر أنفاسه. ولم توصل غرفته أو ممتلكاته بالأختام لأنه أولاً: لم يكن هناك ورثة، وثانياً: لم يتبق لديه من الميراث إلا القليل.

وخلت بطرسبورغ من أكاكي أكاكيفتش وكأنما لم يكن موجوداً فيها أبداً. اختفى وغاب ذلك المخلوق الذي لم يكن له من يحميه والذي لم يكن عزيزاً على أحد ولا شيقاً بالنسبة لأحد والذي لم يجذب إليه انتباه حتى عالم الطبيعة الذي لات يدع ذبابة عادية دون أن يغرس فيها دبوساً ويفحصها تحت المجهر... ذلك المخلوق الذي تحمل بإذعان سخریات الكتبة الموظفين والذي واره التراب دونما علة خارقة. ولكنه مع ذلك ولو قبيل نهاية عمره زاره ضيف جميل في صورة معطف بعث الحيوية ولو للحظة في تلك الحياة البائسة. ذلك المخلوق الذي دهمته فيما بعد الكارثة القاسية كما دهمت القياصرة والحكام.. وبعد بضعة أيام من وفاته أرسلوا حارساً من الإدارة إلى شقته ليأمره بالحضور فوراً، فالرئيس يطلبه. ولكن كان على الحارس أن يعود صفر اليدين قائلاً أنه لا يستطيع بعد الآن أن يأتي. وعلى السؤال «لماذا؟» أجاب بالكلمات التالية: «هكذا، فقد مات ودفن منذ أربعة أيام». وهكذا علموا في الإدارة ب وفاة أكاكي أكاكيفتش، وفي اليوم التالي كان يجلس في مكانه موظف جديد، أطول منه قامة بكثير، يكتب الحروف بخط ليس باستقامة خط أكاكي أكاكيفتش، بل بميل وانحراف أكثر.

ولكن من كان يتصور أن هذا ليس كل شيء عن أكاكي أكاكيفتش وأنه كان مقدراً له أن يعيش عدة أيام صاحبة بعد وفاته، وكأنما مكافأة له على حياته التي لم ينتبه إليها أحد؟ ولكن هذا ما حدث، وهاهي روايتنا البائسة تنتهي فجأة نهاية خيالية. فقد انتشرت في بطرسبورغ فجأة شائعات تقول بأنه عند جسر «كالينكين» وفيما وراءه بكثير يظهر في الليالي ميت في صورة موظف يبحث عن معطف مسروق، وبحجة هذا المعطف المسروق ينتزع كافة المعاطف من على جميع الأكتاف غير آبه باللقب أو الرتبة، سواء كانت بياقات من فراء القطط أو السمرور أو مبطنة بالقطن أو معاطف فراء من جلد

الثعالب أو الدببة، وباختصار كافة أنواع الفراء والجلود التي ابتكرها البشر ليستروا بها أنفسهم. وقد رأى أحد موظفي الإدارات بعينه ذلك الميت وعرف فيه على الفور أكاكي أكاكيفتش. بيد أن ذلك أصابه فزع شديد حتى أنه ولى هارباً بكل قواه، ولهذا لم يتمكن من التدقيق جيداً، بل رآه فقط، وهو يلوح له من بعيد بإصبعه مهدداً. وصدرت الأوامر للشرطة بالقبض على الميت بأية وسيلة حياً أو ميتاً ومعاقبته أقسى عقاب ليكون عبرة للآخرين، وكادوا أن يفلحوا في ذلك.

ولكننا مع ذلك تركنا عنا تماماً تلك الشخصية الهامة والذي يكاد أن يكون في الحقيقة سبب الاتجاه الخيالي الذي سارت فيه هذه القصة، الحقيقة تماماً على أية حال. إن واجب العدالة يتطلب منا قبل كل شيء أن نقول أن الشخصية الهامة سرعان ما أحس بنوع من الأسف بعد انصراف أكاكي أكاكيفتش المسكين الذي نزل به ذلك التعنيف القاسي. فلم يكن الإحساس بالشفقة غريباً عليه، وكان قلبه قادراً على إبداء كثير من المشاعر الطيبة، على الرغم من أن رتبته كانت تعوقه كثيراً عن البوح بها. فما إن خرج زميله الزائر من غرفة مكتبه حتى انصرف تفكيره إلى أكاكي أكاكيفتش المسكين. ومنذ تلك اللحظة كان يتخيل كل يوم تقريباً أكاكيفتش الشاحب الذي لم يتحمل تعنيفه الصارم. وأقلقه التفكير فيه إلى درجة أنه قرر بعد أسبوع أن يرسل إليه موظفاً ليعرف أحواله وهل يستطيع حقاً أن يساعده بطريقة ما. وعندما أبلغوه أن أكاكي أكاكيفتش قد عاجله الموت مصاباً بالحمى اعتراه الدهول، وسمع صوت ضميره يؤنبه وظل طول اليوم معتل المزاج. وأراد أن يسري عن نفسه بصورة ما وينسى ذلك الانطباع المقبض، فتوجه ليقضي المساء عند أحد زملائه الذي وجد عنده جماعة محترمة، والأهم من ذلك أن الجميع هناك كانوا من نفس الرتبة تقريباً، فلم يكن ثمة شيء يقيد تصرفاته. وكان لذلك تأثير مدهش على حالته النفسية، فانطلق وأصبح لطيفاً في حديثه، ولبقاً، وباختصار قضى المساء على نحو طيب للغاية. وعلى العشاء شرب كأساً شمبانياً، تلك الوسيلة المؤثرة تأثيراً لا بأس به فيما يخص المرح كما هو معروف. ومنحته الشمبانيا ميلاً إلى شتى أنواع المفاجآت،

وبالتحديد فقد قرر ألا يعود إلى المنزل بل يمضي إلى سيدة معرفة تدعى كارولينا إيفانوفنا، وهي سيدة فيما يبدو من أصل ألماني، كان يكنّ لها مشاعر صداقة محضة، ومن الجدير بالذكر أن الشخصية الهامة كان رجلاً قد جاوز الشباب وزوجاً طيباً ورب أسرة محترماً. وكان ابنه، وأحدهما يعمل عنده في الإدارة، وابنته اللطيفة البالغة ستة عشر عاماً وذات الأنف الأعقف قليلاً، ولكنه أنف جميل، كانا يقبلان عليه كل يوم ليلثما يده قائلين «صباح الخير يا أبي». أما قريته، وهي امرأة ماتزال نضرة، بل وحتى ليس فيها مايعيب، فكانت تعطيه يدها أولاً ليلثمها ثم تقلبها على الوجه الآخر لتقبل يده هو. ولكن الشخصية الهامة الذي كان على أية حال راضياً تماماً من الملاحظات العائلية المنزلية، وجد من اللائق أن تكون له صاحبة للعلاقات الودية في القسم الآخر من المدينة. ولم تكن هذه صاحبة أفضل أو أصغر سناً من زوجته، ولكن مثل هذه الألباز توجد في الدنيا، وليس من شأننا أن نناقشها. وهكذا هبط الشخصية الهامة على الدرج واستقل الزحافة وقال للحوذي: «إلى كارولينا إيفانوفنا»، أما هو فتغطى بالمعطف الدافئ في جلسة وثيرة للغاية وبقية في ذلك الوضع اللطيف. تذكر وهو في غاية الرضا كل اللحظات المرحّة في الأمسية التي قضّاها، وكل الكلمات التي أثارت ضحكات تلك المجموعة الصغيرة، وردد كثيراً منها بصوت خافت، فوجدها جميعاً مضحكة كما كانت، ولذلك فليس من الغريب أن يضحك هو نفسه من كل قلبه. ومع ذلك كانت تنغص عليه أحياناً ريح حارة متقطعة تهب فجأة من حيث لا يعلم إلا الله وليسبب لا يدرىه أحد، فتلهب وجهه وتلقي بها فجأة بقوة رهيبية على رأسه، فتكلفه عناء لا ينتهي في محاولة التخلص منها. وفجأة أحس الشخصية الهامة بأحد مايمسك بياقة معطفه بقوة. وعندما التفت رأى رجلاً قصير القامة في معطف رسمي قديم مهترئ، فعرف فيه لرعبه أكاكي أكاكيفتش. كان وجه الموظف شاحباً بلون الثلج، وبدا ميتاً تماماً. ولكن رعب الشخصية الهامة فاق كل الحدود عندما رأى فم الميت يلتوي منفرجاً وتنب منه عليه رائحة القبور الرهيبة ويلفظ هذه الكلمات: «آه! ها أنت ذا أخيراً! أخيراً أنا، يعني، أمسكت بك من يافتك! بل وعنفتي، حسناً، هات الآن معطفك!» وكاد الشخصية الهامة المسكين أن يموت. أحس برعب شديد إلى درجة أنه بدأ يخشى، وليس

دون مبرر، من أن تكون قد أصابته نوبة نفسية. وأسرع إلى نزع معطفه بنفسه عن كتفيه وصرخ في الحوذي بصوت غير طبيعي: «أسرع إلى البيت بكل قواك!». وعندما سمع الحوذي نبرة الصوت التي لا تتردد عادة إلا في المواقف الحاسمة، بل وتصاحبها حركات أكثر فعالية، دفن رأسه بين كتفيه تحوطاً، ولوح بالسوط واندفع بالعربة كالسهم. وبعد ست دقائق أو أكثر قليلاً كان الشخصية الهامة أمام مدخل بيته. وصل شاحباً، مفزوعاً وبلا معطف إلى بيته بدلاً من أن يصل إلى كارولينا إيفانوفنا، وجر ساقيه كيفما اتفق حتى وصل إلى غرفته، وقضى ليلته في اضطراب شديد حتى أن ابنته قالت له في صباح اليوم التالي، وهم يتناولون الشاي: «أنت اليوم شاحب جداً، يا بابا» ولكن بابا لزم الصمت. ولم يخبر أحداً بما حدث له وأين كان وإلى أين كان ينوي الذهاب. لقد ترك هذا الحادث أثراً قوياً في نفسه. بل إنه أصبح نادراً عن ذي قبل ما يقول لمرووسيه:

«كيف تجرؤ، هل تفهم أمام من أنت»، وحتى إذا قالها فما كان يفعل إلا بعد أن يستمع أولاً إلى شرح للموضوع. ولكن الأمر الأجدر بالملاحظة أنه منذ تلك الساعة كيف الميت الموظف تماماً عن الظهور، إذ يبدو أن معطف الجنرال جاء مناسباً له جداً. على أية حال لم يعد يتردد أن أحداً ما ينتزع المعاطف من على الأكتاف. ولكن كثيراً من رجال الأعمال الحريصين لم يريدوا أبداً أن يركنوا إلى الطمأنينة وراحوا يرددون بأن الميت الموظف مازال يظهر في أطراف المدينة البعيدة. وبالفعل فقد رأى أحد رجال الدرك في حي «كولومنسكي» بعينه شبهاً يظهر من خلف أحد المنازل. بيد أنه لم يتمكن من إيقاف الشبح، بل سار خلفه في الظلام إلى أن التفت الشبح خلفه أخيراً وتوقف وسأله: «ماذا تريد؟» وأظهر له قبضة لا تجد لها مثيلاً لدى الأحياء. فقال الدركي: «لا شيء» وعاد أدراجه من فوره. بيد أن الشبح مع ذلك كان أطول بكثير ويحمل شوارب هائلة، ومضى متجهاً كما بدا نحو جسر «أوبوخوف»، ثم اختفى تماماً في ظلام الليل.

«عمل من أعمق أعمال غوغول»

- 1 -

يقول الكاتب والناقد المعروف في زمنه بافل أنينكوف (1813-1887) والذي كان صديقاً لغوغول، متذكراً: «ذات مرة روى أحدهم في حضور غوغول حادثة طريفة ترددت في أوساط موظفي المكاتب عن موظف فقير، كان من المولعين بصيد الطيور، واستطاع بالتوفير الفائض، والكد والجهد المثابر زيادة على عمله، أن يوفر مبلغاً كافياً لشراء بندقية صيد جيدة بحوالي مائتي روبل. وعندما خرج للصيد لأول مرة في قاربه الصغير إلى الخليج الفنلندي، وقد وضع البندقية الثمينة أمامه على مقدمة القارب، كان — على حد تعبيره — في حالة من الهيام لم يفق منها إلا عندما نظر إلى مقدمة القارب فلم يجد هناك مقتناه. لقد سقطت البندقية في الماء عندما احتكت بها أعواد القصب الكثيفة التي مر عبرها في مكان ما، وباءت كل جهوده في البحث عنها بالفشل. وعاد الموظف إلى داره فلزم الفراش، ولم ينهض منه، فقد أصيب بالحمى. ولم يعد إلى الحياة إلا بفضل اكتتاب عام نظمه زملاؤه الذين علموا بالأمر فاشترى له بندقية جديدة.. وضحك الجميع من هذه الحادثة الطريفة التي كان لها أساس واقعي، ماعدا غوغول الذي أصغى إلى الرواية مستغرقاً في التفكير، ثم طأطأ رأسه». وهكذا كانت هذه الحادثة الطريفة أول فكرة لرواية «المعطف» الرائعة.

لقد سمع غوغول هذه الحادثة في بطرسبورغ قبل سفره إلى الخارج في أعوام 1833-1836.

وكان نيقولا ي غوغول آنذاك كاتباً مشهوراً أبدع أعمالاً جذبت إليه الانتباه العام. فمجموعة الروايات الأولى التي أصدرها غوغول بعنوان «أمسيات قرب قرية ديكانكا» (1831-1832) أذهلت القراء بقوة روح الفكاهة وأصالتها. وكتب الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين (1799-1837) بعد قراءتها: «هذا هو المرح الحقيقي، الصادق، غير المتكلف، بدون افتعال أو تطرف». وفيما بعد، قال بوشكين

متذكراً: «كم أعجبنا ذلك الكتاب الروسي الذي جعلنا نضحك، نحن الذين لم نضحك منذ عهد فونفيزين!».

ونضجت موهبة غوغول بسرعة غير عادية وباندفاع. ففي الروايات التي ضمنها مجموعتي: «أرايسك» و«ميرجورود» (صدرتا في عام 1835) أصبحت نظرة الكاتب إلى الحياة أكثر عمقاً وجدية وحزناً. وكان بوشكين من أوائل الذين لفتوا الانتباه إلى ذلك التغيير. فقد لاحظ أنه منذ زمن «الأمسيات...» وغوغول «يتطور ويرقى دون توقف» وأن مؤلفه الجديد (كان بوشكين يقصد بالتحديد رواية «إقطاعيو العهد القديم» ضمن مجموعة «ميرجورود») «يجعلنا نضحك من خلال دموع الحزن والحنان».

ويتذكر غوغول: «أنا نفسي شعرت أن ضحكي لم يعد مثلما كان عليه من قبل، وأني لم أعد قادراً على أن أكون في مؤلفاتي مثلما كنت سابقاً، وحتى الحاجة إلى الترويح عن النفس بمشاهد بريئة، خالية البال، فقد انتهت مع سنوات شبابي».

إن غوغول يبحث الآن عن «موضوعات» يمكن أن تساعد على فضح العيوب السائدة في المجتمع، وكشف «المظالم» (تعبير الكاتب نفسه). وقد تجسد هذا الهدف بأوضح مايمكن في ملهاة «المفتش العام» التي صدرت وظهرت على خشبة المسرح عام 1836. ولكن في الوقت نفسه — وتلك كانت خصيصة موهبة غوغول المتعددة الجوانب — كان الكاتب يكتب ويفكر في تأليف أعمال أخرى، أعمال تجمع بين «الحقيقة والنقمة» على حد قوله... وبحلول عام 1841 كانت رواية «المعطف» قد اكتملت كتابتها في الأساس.

وعندما يتعرف القارئ على الرواية سيرى إلى أي حد ابتعد غوغول عن «الحادثة المكتيبة». بالطبع بقي أساس الحادثة، ألا وهو وقوع حدث خارق في حياة موظف فقير وفقدانه لشيء هام وعزيز عليه. إلا أن سياق الحادث المحدد ونهايته، وصورة الشخصية الرئيسية... كان ذلك قد خرج من تحت ريشة غوغول مختلفاً تمام الاختلاف.

وعلى الرغم من أننا لانعرف الكثير عن موظف «الحادثة المكتيبة»، لا عن أسلوب حياته أو عاداته.. إلخ، إلا أننا نعرف مع ذلك شيئاً محدداً: أنه كان مولعاً بالصيد. وهذا

يعني أن عمله كموظف لم يكن يستفد كل قواه الروحية، بل يترك منها شيئاً لاهتمامات أخرى، خارج نطاق العمل، لما أصبحنا نسميه اليوم بالهوايات.

أما أكاكي أكايفتش فكان أمره يختلف تماماً. كان يحيا بكل جوارحه في «وظيفته». كان يكرس للنسخ كل ساعات عمله في الإدارة ووقت فراغه وراحته في المنزل «كان يبدو أنه لا وجود لشيء بالنسبة له خارج نطاق هذا النسخ». ويبدو أن المشاركة الودية والابتسامة لم تعرفا طريقهما إلى حياته. ولم يكن يعرف حنان المرأة ولا الرعاية. وينقلنا السرد من مولد أكاكي أكايفتش رأساً إلى سنوات عمله، مما يترك لدينا انطباعاً بأنه شخص بلا تاريخ، كأنما ولد هكذا مستشاراً اعتبارياً وناسخاً.

لقد أطلق الناقد والشاعر أبولون غريغورييف (1822-1864)، المعاصر الأصغر لغوغول، على ذلك وصف «ضحالة» الإنسان، «ضحالة مخلوق الله»، وأضاف: «أن شعر رأسنا يقف من تلك الفكاهة التي تصور هذه الضحالة».

والبنديقية التي وردت في «الحادثة المكتبية» لاتشكل حاجة ماسة، بل هي إلى حد مانزوة، رغم أنه دفع فيها ثمن باهظ من الجهود المضنية والحرمان. وبالنسبة نجد في نص «المعطف» تلميحاً إلى مثل هذه المقتنيات. فقد ذكر الكاتب أولئك الموظفين، ممن تشير الدلائل إلى أنهم ليسوا من الأغنياء والذين يقتنون «مصباحاً عصرياً أو شيئاً آخر، يكلفهم كثيراً من التضحيات والحرمان من وجبات الغداء والترهات». إن هذه السطور تمهد لقصة اقتناء أكاكي أكايفتش للمعطف. تمهد لذلك بطريقة التضاد والتناقض. فخلافاً عن البنديقية أو المصباح العصري وما إلى ذلك.. فإن المعطف بالنسبة لأكاكي أكايفتش ضرورة ماسة. ولم يجرؤ على اقتنائه إلا عندما أصبح تجنب ذلك مستحيلاً، أي بعد أن اهترأ «قبوطه» القديم تماماً. وأية جهود روحية، أي توفير وحسابات عسيرة لقروش فقيرة، وأي تفكير تطلبه هذا الاقتناء! لقد أصبح المعطف عن حق مغزى حياة أكاكي أكايفتش المضنية الخالية من المسرات.

ثم إن فقدان الموظف الصياد لبنديقيته كان نتيجة الصدفة والإهمال. وذلك شيء يمكن أن يقع لأي شخص، وليس هنا، في الواقع، من يوجه إليه اللوم. إلا أن خسارة أكاكي

أكاكيفتش المشؤومة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات الإنسانية. أي بجشع البعض وقوتهم البدنية الفظة، وبقسوة البعض الآخر وتبلد أحاسيسهم.

أما نهاية «المعطف» فمناقضة في الأساس «للحادثة المكتيبة». فلنتذكر أن الموظف المسكين «قد عاد إلى الحياة» بفضل مشاركة زملائه الذين نظموا «اكتتاباً عاماً» فعوضوه عن البندقية المفقودة.

ونجد في رواية غوغول سطوراً تبدو وكأنها كتبت بوحى من هذا المشهد. فقد قرر الموظفون أيضاً أن يجمعوا تبرعاً لصالح أكاكي أكاكيفتش، ولكنهم لم يجمعوا إلا «مبلغاً تافهاً»، لأنهم أنفقوا الكثير في الاكتتاب لرسم صورة للمدير ولشراء كتاب ما لأحد المؤلفين الذين كان زميلاً لرئيس القسم. ويبدو التلميح إلى «الحادثة المكتيبة» مهماً لغوغول في تضاده: فقد جرى كل شيء في حياة أكاكي أكاكيفتش بصورة أكثر وطأة ومأساوية، إذ لم يخفف أحد للدفاع عنه أو مساعدته.. لا زملاؤه في الإدارة، ولا حماة القانون من رجال الشرطة، أو تلك «الشخصية الهامة» التي اضطر أكاكي أكاكيفتش إلى التوجه إليها. وفي النهاية تضع الرواية الإنسان الصغير وجهاً لوجه أمام الآلة البيروقراطية القاسية لروسيا القديمة، فتسحقه هذه الآلة وتدمره دون رحمة.

لقد حوّر غوغول المادة الواقعية وعالجها بحيث تبرز إلى المقدمة الفكرة الإنسانية. إذ وضع في الصدارة شخصاً يشغل إحدى الدرجات السفلى في النظام لاهرمي لروسيا القيصرية، مخلوقاً من أكثر المخلوقات سكينه ووداعة، لم يلحق أذى بأحد في يوم من الأيام، صابراً على شتى صنوف الحرمان والإهانات، ولم يفصح أبداً عن أي تطلعات، اللهم إلا التطلع إلى شيء لاغنى عنه... إلى «المعطف»، وفقط عندما أصبح ذلك أمراً لا محيد عنه. وإذا بالحياة تعاقب مثل هذا الإنسان وتسحقه بلا رحمة، وكأنه أحد الأشرار أو المجرمين!

ظهرت «المعطف» لأول مرة في المجلد الثالث من «مؤلفات نيقولاى غوغول» الصادر في بداية عام 1843.

وفي هذا المجلد نشرت رواية «المعطف» مع غيرها من الروايات: «شارع نيفكسي» و «الأنف» و «الصورة» و «العربة» و «مذكرات مجنون» و «روما».

وهذه الروايات — ما عدا «العربة» و «روما» تسمى بروايات بطرسبورغ. ورغم أن هذه التسمية لم يطلقها غوغول نفسه، فقد التصقت بهذه الروايات لأنها جمعتها بصورة موفقة في سلسلة واحدة. فحدة الصراعات، والجو القلق لعاصمة كبيرة، والتشابك الغريب بين الخيال والواقع، وموضوع «الإنسان الصغير».. كل ذلك يميز «روايات بطرسبورغ» كسلسلة واحدة.

وربما تجلت هذه الخصائص بأقوى صورة في رواية «المعطف». وعلى الرغم من صدور «المعطف» في وقت واحد تقريباً مع أهم أعمال غوغول «النفوس الميتة» (1842)، فإنها لم تبقَ في الظل، بل تركت انطباعاً قوياً في نفوس المعاصرين.

وعندما قرأ الناقد الشهير فيساريون بيلينسكي (1811-1848) رواية «المعطف» وهي بعد مخطوطة، قال أنها «واحدة من أعمق مؤلفات غوغول». أما الكاتب الثوري المعروف ألكسندر هيرتسين (1812-1870) فقد وصفها بأنها «مؤلف هائل».

وهناك عبارة شائعة معروفة: «لقد خرجنا جميعاً من «معطف غوغول». لقد سجل هذه العبارة الأديب الفرنسي ملكيور دي فوجوز نقلاً عن أحد الكتاب الروسي. وللأسف فلم يذكر فوجوز من كان محدثه. والأرجح أنه كان دستوفسكي (1821-1881). ولكن ثمة افتراض بأن قائلها تورجينيف (1818-1883)، على أي حال فإن العبارة تشخص بدقة وحكمة تأثير غوغول على الأدب الروسي الذي كان يعالج موضوع «الإنسان الصغير» ويعمق روحه الإنسانية.

فقد ترجمت الرواية إلى كثير من اللغات بما فيها العربية. ففي عام 1937 صدرت في مجلة «المقتطف» المصرية. وفي عام 1946 صدرت في العراق ضمن مجموعة «أربع قصص من الأدب العالمي».

وفي الوقت الحالي تزداد شهرة «المعطف» عاماً بعد عام. وقد حوت إلى مسرحية عرضت في وارسو في مسرح «الكوميديا الجديدة» (مسرحها الشاعر البولندي المعروف يوليان توفيم)، كما عرضت في تركيا وبلدان أخرى كثيرة. وفي الخمسينات قام الممثل الفرنسي الصامت المعروف مرسيل مرسو بوضعها على المسرح، وطاف بالعرض أكثر من عشرين بلداً، وقال: «لقد أصبحت «المعطف» الخط الموجه لمسرحنا».

إن العالم يقرأ، ويعجب، ويستوعب هذا العمل «الذي يعد واحداً من أعمق أعماق غوغول».

أتمنى أن تكونوا استمتعتم بالقراءة. مع تحياتي: مروان ☺.

المدونة: <http://alrsheed.tumblr.com/>

البريد: marwan.ra@gmail.com

مع ملاحظة أنني لست ناقل القطعة على الكمبيوتر، إنما جهدي ينحصر في تنسيقها
وتحويلها ورفعها على الشبكة. والله ولي التوفيق.